إبراهيم مضواح الألمعي

# العائشتان

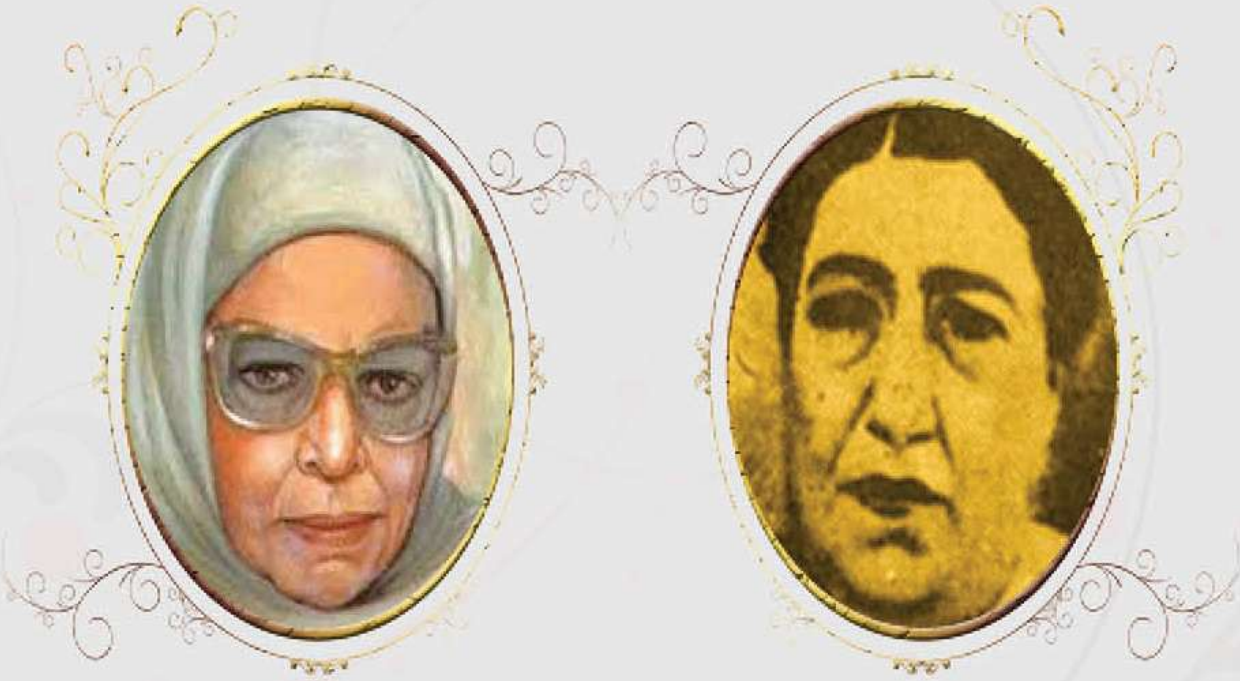

مؤسسة الانتشار العربي

# العائشتان

# العائشتان

## ظلال من حياة عائشة التّيموريّة
## وعائشة بنت الشّاطئ

إبراهيم مضواح الألمعي

# المحتويات

إهُدَاءْ ..... 7
تقْدِمَة ..... 9
عائشة التيمورية شاعرة الألم ورائدة الأدب النسوي
في القرن التاسع عشر ..... 13
عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) التلميذة الخالدة . 33

# إهْدَاءْ

إلى أختي الغالية (عـــائـــشـــة)..
التي كانتْ أُمًّا قبل الأوان؛ فهيأتني
وودعتني بالدموع في يومي المدرسي
الأول..
وحين عدت محمَّلًا بالكُتُب المدرسية
استقبلتني مزهوة بالطفل الذي أصبح
تلميذًا..

# تقْدِمَة

ليس الاسم وحده الذي يجمع بين هاتين العائشتين، فهناك جوامعُ أخرى كثيرة، منها أنهما: عاشتا في بيئة لا تحمدُ للمرأة الانصراف إلى طلب العلم، ومرتا بمحن ومكابدات جراء ذلك، وبرغم تلكم الصعوبات فقد ترقتا في مدارج الطلب حتى بلغتا الغاية، ثم هما أديبتان وشاعرتان رائدتان، فالتيمورية كانت فريدة عصرها في القرن التاسع عشر، حيثُ طبق اسمها الآفاق، وعالجت الشعر بالعربية والفارسية والتركية، ولها في كل لغة منها ديوان، في حين بلغت بنت الشاطئ الغاية في علوم العربية والتفسير والتاريخ الإسلامي، في القرن العشرين، حتى تسابقت الجامعات من الخليج إلى المحيط إلى استقطابها، وكلا العائشتين تركتْ آثارًا علمية وأدبية مهمة، وكلاهما سارت بالتجديد في الطريق الوسط، فلم تشط إحداهما عن قيم مجتمعها، ولم تنقلب عليه.

وإن في قراءة الأجيال لهذه النماذج ما يعزّز

الإصرار على تحقيق الأهداف السامية، وتعوُّد التضحية، والسمو بالنفس عن الرغائب القريبة إلى الغايات الكبيرة.

**إبراهيم مضواح الألمعي**
**شوال 1435هـ**
**آب/أغسطس 2014م**
**ألمع**

عائشة التيمورية (1840م ـ 1902م)

# عائشة التّيموريّة
## شاعرة الألم ورائدة الأدب النسوي
## في القرن التاسع عشر(*)

جاء نور الإسلام فاصلًا بين عصرين كما يفصل بزوغ الشمس بين الليل والنهار، ومع أن المرأة العربية قد تحولت من عارٍ يُدس في التراب إلى عنصر فاعل في المجتمع الجديد، إلا أن الشاعرات نسبة إلى الشعراء لم يتغيرن، ربما لأن الاستعداد للشعر نادر وهو بين النساء أندر، وبرغم هذا نجد الإمام جلال الدين السيوطي (849هـ ـ 911هـ) يقول في مقدمة كتابه [نزهة الجلساء في أشعار النساء]: «إن ابن الطَّراح جمع كتابًا في أخبار النساء الشواعر من العربيات اللاتي يُستشهد بشعرهن في العربية فجاء في عدة مجلدات، رأى منه المجلد السادس، وليس بآخره».

فالمرأة قد تحسن أنماطًا من الأدب ولكنها في

(*) **المجلة العربية**، العدد (308)، رمضان 1423هـ، 2002م.

ميدان الشعر أقلّ لأنها أدنى إلى كتمان العاطفة - كما يقول العقّاد ـ ثم عادت المرأة تغيب بتناسب عكسي مع درجة وعي المجتمع، فكلما قلَّ وعي المجتمع وفهمه لفلسفة الإسلام زاد التغييب والحرمان، فلم يكن الإسلام - كما يدّعي بعض دعاة تحرير المرأة - وراء ذلك الامتهان لحقوق المرأة في الحياة، بل كانت هناك عوامل أخرى أبرزها التقاليد والعادات التي فرضتها عقدة الذكورية عند الرجل في المجتمعات التي أساءت فهم الإسلام، حتى أصبحت العادة مقدّسة فاختلطت العادة بالعبادة، وارتبط العيب في عرف الناس بالمحرم، فلا تجوز مناقشته أو تعليله، بل تجاوز الأمر ذلك إلى أن أصبح المقدس الديني على هامش العادة المقدسة في تلك المجتمعات، وبما أن الرجل هو الأقوى بكل مقاييس القوة فقد أخذت حريته تتورّم على حساب حرية المرأة، حتى أصبح الرجل هو المشرِّع للمرأة، وأصبحت المرأة تذعن للمفهوم السائد بأنها لا تعدو أن تكون بعض متاع الرجل تغلو وترخص بحسب حاجته إليها.

والإسلام بريء مما أصاب المرأة، فقد تحملت المرأة بسبب هيمنة الرجل ظلمًا مريرًا رضيت به أكثر النساء لأنه يكفيهن مؤونة المشاركة الفاعلة في الحياة،

أو لأنه بالنسبة إلى أكثرهن أصبح قدرًا لا مفر منه، ويدلنا على براءة الإسلام فهمنا لتعاليمه من مصدريها الأساسيين القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة، وحال المرأة في صدر الإسلام، وفي فترات القوة في العهدين الأموي والعباسي، وما بلغته المرأة في العهد الأموي الأندلسي، وما يحدّثنا به التاريخ الإسلامي من سِيَر النساء في مسيرة الحضارة الإسلامية، فالعصر الإسلامي يزخر بنوابغ النساء المسلمات، وفي كتب الجرح والتعديل ذِكْرٌ لمئات من المحدثات اللائي علَّمن الرجال، وكثيرٌ من المحدثين عندما يعدون أساتذتهم يعدون بينهم كثيرات من النساء.

ولقد بلغت الدولة الإسلامية ذروة ضعفها في أواخر الخلافة الإسلامية، حتى أصبحت النساء أسيرات الجهل وضيق الأفق واستبداد الرجل؛ فكان من أعجب العجب أن تنشأ ـ في مجتمعٍ هذه حاله ـ شاعرةٌ مجوِّدة وكاتبة بليغة، فاقت أدباء عصرها وسبقت في مضمار الرثاء العاطفي أدباء العصور كلها، فسبقت زمانها وشقّت الطريق لأترابها، فكانت أعجوبة في بيانها، وبلغت درجة لم يكن يفوقها من شعراء عصرها سوى البارودي، ولم يأت بعدها مثلها كما يقول الشيخ علي الطنطاوي، ويتفق معه العقّاد إذ يقول: «الواقع

أننا لم نقرأ لمن نشأ بعد السيدة عائشة التيمورية نظمًا يضارع نظمها، ولا شاعرية تقارب شاعريتها».

تلك هي (عائشة التيمورية) بنت إسماعيل باشا تيمور، أخت العلامة المحقّق أحمد تيمور (1871م ـ 1930م) الذي قالت مستبشرة به عندما بدأ القراءة، وكأنها ترى بعين المستقبل المرتبة التي هو بالغها:

**لاح السعودُ وأسفر التوفيقُ**
**وتلا لنا سُوَرَ العُلا توفيقُ**[1]
**رَقَمْ الفقيهُ له على لوح الهدى**
**أقبل، فإنك للنجاح رفيقُ**

ولدت (عائشة التيمورية) سنة 1840م بمدينة القاهرة، ونشأت في أسرة تركية غنية، فتعلمت القراءة والكتابة في القصر على طريقة بنات الأكابر، فتنبهت في نفسها الرغبة في المطالعة، ودخلت في صراع مع أمها، حين أرادتها أن تكون على ما كان من شأن أترابها، في تعلم الخياطة والتطريز، فأبت البنتُ إلا ما تميل إليه فطرتها، وكانت والدتها تأبى عليها التفرّغ للكتابة والأدب لأن التفرغ لهما لم يكن محمودًا من

(1) توفيق هو اسم شقيقها فاسمه مركب (أحمد توفيق) ثم غلب اسم أحمد وعرف به.

البنات في جيلها ـ كما يقول العقّاد ـ واستمرت المعركة حتى تدخَّل الأب (إسماعيل تيمور) فقال لها: دعي هذه البنت للعلم وعليك بأختها ربِّيها كما تريدين. وأحضر لها المعلمين والمعلمات.

تاقت نفس عائشة التيمورية إلى مطالعة الكتب الأدبية، والدواوين الشّعرية، فطالعتها مطالعة هيأت لها ملكة التصورات الشعرية، فصارت تنشد القصائد الطوال والأزجال المتنوعة والموشحات البديعة حتى جمعت ثلاثة دواوين باللغات الثلاث، العربية والتركية والفارسية.

فقالت الشّعر بالعربية لغة وطنها المصري، وبالتركية لغة آبائها؛ وهي لغة كانت ما تزال لغة التخاطب في بعض الأسر ذات الأصل التركي، وقالته بالفارسية التي هي لفئة من أدباء العرب والترك لغة مدرسية. ولهذا تقول مي زيادة: «ليس بوسعنا إلا الإعجاب بقلمٍ يُعالج الشعر والأدب في لغات ثلاث».

لقد ظهرت عائشة التيمورية حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل، فجاءت بارقًا، يُبشّر المرأة المصرية ومستقبلها، فقد كان لعائشة التيمورية وزنها بين أدباء عصرها وليس بين الأديبات فقط.

وتعتبر عائشة التيمورية من أُوَل الداعيات إلى

تعليم المرأة والعناية بها وحسن تربيتها، وقد سبقت قاسم أمين، ولكن دعوتها جاءت متميزة بإطار الشرع الإسلامي فكانت تدعو إلى تعليم المرأة وتربيتها، وتحاول أن تبرهن أن ذلك لن يؤدي إلى مسخ حيائها وأنوثتها، بل سيجعلها قادرةً على المشاركة بفاعلية في الحياة، فقد كان المفهوم السائد في تلك المرحلة أن تعليم المرأة سيخرجها من طوق أنوثتها وحيائها، وسيؤدي بها إلى التفسّخ والانحلال، وقد قالت في ذلك شعرًا ونثرًا، ومن شعرها في هذا:

**بِيَدِ العفاف أصون عزَّ حجابي**
**وبعصمتي أسمو على أترابي**
**وبِفِكْرَة وقادة وقريحة**
**نقادة قد كُمِّلَتْ آدابي**
**ما ضرني أدبي وحسنُ تعلمي**
**إلا بكوني زهرةَ الألبابِ**
**ما ساءني خدري وعقدُ عصابتي**
**وطراز ثوبي واعتزاز رحابي**
**ما عاقني حجلي[1] عن العليا ولا**
**سدْلُ الخمار بلمتي ونقابي**

(1) اشتهرت رواية البيت (خجلي) بالخاء المعجمة، كما روي في =

**عن طي مضمار الرهان إذا اشتكتْ**
**صعبَ السباق مطامحُ الرُّكابِ**

وهي تحاول بضرب المثال، أن تقرب فكرة تعليم البنات إلى عقول الآباء فتقول:

**إن المصابيح إن أفعمتها دسمًا**
**أهدتْ لوامعَها في كل مُقْتَبسِ**
**وإن خلا زيتها جفَّت فتائلها**
**أين الضياء لخيطٍ غير مُنغمسِ**

ومن نثرها في هذا الباب ما نشر في جريدة الآداب عام 1889م، تقول: «لو عُني رجالنا معاشر الشرقيين بتربية بناتهم وأجمعوا على تلقين العلوم لهن بمقدار شفقتهم لنالت أرفع مجدٍ وأهنأ وجد، ولعوَّضت تلك الفتيات عن ذلك القلق براحة العرفان، وأوسعت بسواعد معلوميتهن مضيق السلوك إلى ساحة الإذعان وقامت بواجبات التدبير وهمَّت بوقاية أساس حليتها من التدمير، لأن تخرب الدور بعد انقطاع أهلها طبيعي والطبيعي ليس بضار. إنما هدم سقف الشّرف بصرصر

= بعض المصادر بالحاء المهملة. واعتقادي أنها بالحاء المهملة أصوب، لسياق البيت فقد جاء في معرض ذكرها عددًا من ملبوسات المرأة وأدوات زينتها، ولما في الحجل من دلالة القيد.

الجهل مع وجود الديار هو العار بل النار، ومن المستغربات أن يفرِّط الفارس في تمهيد الأصل، ويأسف على اعوجاج الفرع وهو المودي به، فلو أروت الرجال غرائسها من قرارة المعرفة والعرفان، لاتكأت في ثقل الأحمال على قويم تلك الأفنان، وصعدت بمساعدتهن أعلى الدرج وتمسكت بأعلى الحجج، ولكن تعالت هيئتنا هذه في التنميق عن التهذيب بحجة أوهى من بيت العنكبوت وهي أنهن إذا تعلمن الكتابة يعلقن بالهوى» أ.هـ

عاشت التيمورية في سعة من العيش، ولكنها روِّعتْ بفقد ابنتها (توحيدة) ذات الثمانية عشر ربيعًا، التي لم يمض على زواجها سوى شهر واحد حتى مرضت مرضًا مفاجئًا وماتت، فرثتها بما فاق رثاء الخنساء وابن الرومي والتهامي.

لقد كان فقدُ توحيدة أعظمَ خطبٍ في حياة عائشة التيمورية، مع أنه لم يكن الفقد الأول، ولم يكن الأخير؛ فقد فقدت أمها وزوجها وشقيقتها وأباها؛ ذلك الأب العطوف عليها الرحيم بها، صاحب أجمل أثر يُحمد في تعليم ابنته والعناية بتثقيفها في عصر ضنين على النساء بالتعليم والتثقيف، وإن عائشة لتذكره

دومًا بالشكر والتحنان، وترثيه بعد وفاته بقصيدة فياضةٍ بالعبرات:

**أبتاه قد حشَّ الفراق حشاشتي**
**هل يرتضي القلبُ الشفوقُ جفائي؟**
**يا من بحسن رضاه فوزُ بنوتي**
**وعزيزِ عيشته تمامُ رخائي**
**إن ضاق بي ذرعي إلى من أشتكي**
**من بعد فقدك كافلاً برضائي**
**أبتاه قد جرعتني كأس النوى**
**يا حرَّ جُرْعَتِهِ على أحشائي**
**يا ليت شعري، حينما حلَّ النوى**
**هل كنتَ عني راضيًا أم نائي؟**

فقدتْ من كان لها نصيرًا على الدوام منذ الصغر في جهادها ضد والدتها التي كانت تحثّها على تعاطي أشغال الإبرة والتطريز.

وماتت والدتها فكان الشعر متنفسًا، تخرج به نفثات صدرها، فكان من رثائها إياها:

**يا منهل التشتيت، حسبك ما جرى**
**فعيوننا قد أقسمتْ لا تهجعُ**
**ذهبَ الأحبة واستقر رِكابهم**
**يا ليت روحي ودَّعت إذ ودعوا**

**يا ليتهم طلبوا الفداء فهذه**
**روحي ولكن «ليت» ليست تنفعُ**

وماتت شقيقتها فرثتها بقصيدة، ارتفعت بها التيمورية إلى ما فوق الندب والبكاء، ومنها:

**أحبيبتي، كيف الرضا بتشتتٍ**
**قد ضر بالإخوان والأولادِ**
**يا من أتى للقبر يقرأ طرسه**
**مهلاً، فليس كتابه بمدادِ**
**وأعدْ له نظرًا فإن حروفه**
**كُتبتْ بذوبِ العينِ والأكبادِ**

ولكنَّ مأساتها بموت توحيدة فوق أن تُحتمل؛ فكان وداعها توحيدة وداعًا للسّرور ولذّة الحياة، وهي تروي قصة اكتشافها مرض ابنتها في مقدمة ديوانها التركي فتقول: «قبل أن تنطرح على فراش المرض فاجأتها في أحد الأوقات وهي في رداء نومها، وبيدها قلمٌ تكتب القطعة العربية التالية:

**اسمع مقالي يا أريبْ**
**وقصتي شرحٌ مريبْ**
**قد كنت في دوح الصبا**
**أهتز كالغصن الرطيبْ**

**أصبحتْ حالي عبرةً**
**يبكي على مثلي الغريبْ**
**كلا، ولا لي منهلٌ**
**أُروى به إلا النحيبْ**
**فالدمعُ مني ساجمٌ**
**والرمس أضحى لي قريبْ**
**يا رب عجل رحلتي**
**واغفر ذنوبي بالحبيبْ**

فلما رأتني مقبلة عليها دسَّتْ رقعة الشّعر تحت وسادتها بسرعة، ولكني بادرت في الحال لاستخراجها فاختطفتها مني، ثم خاطبتني قائلة: لا تعبئي يا أمي المشفقة بمثل هذه الثرثرة. ثم قالت لجاريتها: «خذي هذه الورقة فأحرقيها» فلحقت بالجارية وأخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال، فأجابتني: إنَّ سيدتي تتناول الطعام معك إذعانًا لرأفة أمومتك، ولكن الطعام لا يبقى بعد ذلك لحظة في جوفها، وهي تذهب كل ليلة إلى سرير نومها تطمينًا لقلبكِ غير أنها لا يغمض لها جفن».

ويبدو واضحًا هذا اللطف والرقة الذي استحقت به توحيدة أن تكون البنت الأثيرة عند أمها، فدعت لها أمها الأطباء وسعت بكل وسيلة إلى الاستطباب، حتى

إذا استيقنت توحيدة أنها راحلة، ألقت على أمها كلمات التعزية والوداع والتشجيع بكلمات روتها في ديوانها التركي. قالت: عبثًا تدفعك الشفقة يا أماه إلى معالجة أمراضي فإنه قد آن الأوان، ولا مناص من تلبية نداء المنادي «كل من عليها فان» وإني أضرع إلى الله أن يلهمك صبر أيوب، وأن يمنحني نعمة رضاكِ فيكون ذلك سبب الرحمة والتجاوز عن سيئاتي وأن يصون شقيقتي وأخوتي، ثم ضمّتني إلى صدرها فاعتنقنا. وبتنا ليلتنا إلى الصباح في بكاء وانتحاب ونواح».

ماتت توحيدة، فأقامت لها الأم مناحةً دامت سبع سنين، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد، ولا غرابة أن تكون هذه حالها وهي تودع ابنتها الأثيرة التي لم تكن ترى فيها من عيوب البشر شيئًا، حتى أنها لما قالت لزائراتها (أوحشتونا) وهي ترحّب بهن، فقضت لثغة خفيفة بلسانها أن تجي أوحشتونا (أوحستونا!) وسمعت السيدة عائشة الكلمة التي حرَّفها العيب اللفظي، مضت تفسِّر هذا بأنه من فرط الحسن لا من عيب اللسان فقالت:

**قال العواذل مذ قالت مؤانسةً**
**«أوحستنا» إنها تجفو وذاك غلطْ**

**لم يُبدلِ الشينَ سينًا لفظُها غلطًا**
**بل لم يسع ثغرها الزاهي ثلاث نقطْ**

لم تكن عائشة التيمورية لترى في توحيدة إلا الكمال والجمال، بل إن حبها إياها يسوِّغ ويجمِّل كل خطأ، فلا غرابة أن يزلزلَ فراقُها نفسَ الشاعرة المرهفة، ويقلب كيانها، بل إنها اعتبرت موتها انقلابًا لنواميس الكون، فالشمس احتجبت، وغاب القمر، وهل ينعم المحزون بأشعة الشمس، وبالقمر المستدير يسير في مواكب النجوم، لقد رثتها بمرثية كُتِبَتْ حروفُها بدمعٍ يجري من قلبٍ يسيل، تقول فيها:

**سُتِرَ السَّنا وتحجبت شمسُ الضُحى**
**وتغيبتْ بعد الشروقِ بدورُ**
**ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى**
**وغدت بقلبي جذوة وسعيرُ**
**يا ليته لما نوى عهدُ النوى**
**وافى العيونَ من الظلام نذيرُ**
**طافت بشهر الصوم كاسات الردى**
**سَحَرًا وأكوابُ الدموع تدورُ**
**فتناولتْ منها ابنتي فتغيّرت**
**وجَناتُ خدٍّ شانها التغييرُ**

**فذوت أزاهيرُ الحياة بروضها**
**وانقدّ منها مائِسٌ ونضيرُ**

ثم تحكي مناورات المرض والأمل الذي تسربَ إلى نفس الفتاة، فنمَّته ولكنه سرعان ما تبدّد لتهبط توحيدة من سماء الأمل إلى بيداء اليأس القاحلة، فتسلِّم توحيدة وتعجل لأمها تصور الحالة التي تكره الأم الثكلى - وحق لها ـ أن تمرّ بفكرها، فتشبه منظرها وهي على الرقاب محمولةً إلى لحدها بحالة زفافها وهي عروس من زمن يسير، وتطلب من أمها أن تنبه صاحب اللحد أن هذه التي تُعد قبرها ليس هذا مكانها فهي عروس فارفق بها، وأي رفق منتظر ممن يودع الأموات اللحود؟! وتطلب منها أن تتريث إلى جوار قبرها لتطمئن بجوارها.

**لبستْ ثياب السّقم في صغر وقد**
**ذاقتْ شراب الموت وهو مريرُ**
**جاء الطبيب ضحى وبشّر بالشّفا**
**إن الطبيب بطبه مغرورُ**
**وصف التجرّع وهو يزعم أنه**
**بالبُرء من كل السُّقام بشيرُ**
**فتنفّسَتْ للحزن قائلةً له**
**عجّلْ بُبرئي حيث أنت خبيرُ**

**وارحـم شـبـابـي إن والـدتـي غَـدت**
**ثـكـلـى يُـشـيـرُ لـهـا الـجـوى وتـشـيـر**
**وارأفْ بـعـيـنٍ حُـرِمَـتْ طـيـبَ الـكـرى**
**تـشـكـو الـسـهـادَ، وفـي الـجـفـونِ فُـتـور**
**لـمـا رأتْ يـأسَ الـطـبـيـب وعـجـزَه**
**قـالـت ودمـعُ الـمـقـلـتـيـن غـزيـرُ:**
**أُمـاه قـد كَـلَّ الـطـبـيـب وفـاتـنـي**
**مـمّـا أؤمـلُ فـي الـحـيـاة نـصـيـرُ**
**أمّـاهُ قـد عـزَّ الـلـقـاءُ وفـي غـدٍ**
**سـتـريـن نـعـشـيَ كـالـعـروسِ يـسـيـرُ**
**وسـيـنـتـهـي الـمـسـعـى إلـى الـلـحـد الـذي**
**هـو مـنـزلـي ولـه الـجـمـوع تـصـيـرُ**
**قـولـي لـربِّ الـلـحـد رفـقًـا بـابـنـتـي**
**جـاءت عـروسًـا سـاقـهـا الـتـقـديـرُ**
**وتـجـلـدي بـإزاء لـحـدي بـرهـةً**
**فـتـراك روحٌ راعـهـا الـمـقـدورُ**

ثم تذكرها بالأماني العذاب التي كانت تجول في قلب الأم وابنتها العروس إمعانًا في زيادة هول المأساة، وتوصيها أن تعتني بجهاز العرس فهو يحمل عبق الذكريات وأعذب الآمال التي حالت الأقدار دون تحقيقها، لتنتقل من حياة الزوجات إلى صمت القبور الرهيب.

ولنا أن نتصوّر هذه الأم الثكلى وهي تعود إلى الدار فلا تجد ابنتها، وترى جهاز العرس، وقد أودعت العروس حفرةً مظلمةً باردة، وأهيل عليها التراب، ويرن في أذنها صوتُ ابنتها من تحت الجنادل والتراب تقول:

**أماه قد سلفت لنا أُمنيَّة**
**يا حسنها لو ساقها التيسيرُ**
**عودي إلى ربعٍ خلا ومآثرٍ**
**قد خلِّفتْ عني لها تأثيرُ**
**صوني جهاز العرس تذكارًا فلي**
**قد كان منه إلى الزفاف سرور**
**جرَّتْ مصائبُ فرقتي لك بعد ذا**
**لبسَ السوادِ ونُفِّذ المسطورُ**
**والقبرُ صار لغصن قدِّي روضةً**
**ريحانه عندَ المزار زهورُ**
**أماه لا تنسي بحق بنوّتي**
**قبري لئلا يحزن المقبورُ**

وهل تملك الأم الحنون إلا أن تجيب هتافات بنتها الأثيرة وهي تودّعها، وإن لم تقلها البنت الغالية بلسانها، فتلك لغة أبلغ، وذاك بيانٌ أفصح تبوح به القلوب للقلوب في لحظات الوداع، وأي وداع أفجع من الوداع إلى سكون المقابر:

فأجبتها والدمع يحبس منطقي
والدهر من بعد الجوار يجورُ
بنتاه يا كبدي ولوعة مهجتي
قد زال صفوٌ شأنه التكديرُ
لا توصِ ثكلى قد أذاب فؤادها
حزنٌ عليكِ وحسرةٌ وزفيرُ
قسمًا بغض نواظري وتلهفي
مذ غاب إنسانٌ وفارق نورُ
وبقبلتي ثغرًا تقضّى نحبهُ
فحرمتُ طيبَ شذاهُ وهو عطيرُ
والله لا أسلو التلاوة والدعا
ما غردتْ فوق الغصونِ طيورُ
كلا ولا أنسى زفيرَ توجعي
والقدُّ منكِ لدى الثرى مدثورُ
إني ألفت الحزنَ حتى أنني
لو غاب عني ساءني التأخيرُ
قد كنتُ لا أرضى التباعدَ برهةً
كيف التصبّرُ والبعادُ دهورُ
أبكيكِ حتى نلتقي في جنةٍ
برياض خلدٍ زينتها الحورُ

حلَّت بعائشة التيمورية نكبات ينوء بحملها الأبطال من الرجال، فكيف بشاعرة مرهفة من ربات الحجال، وإن كانت النكبات تمر مرورًا طبيعيًا في حياة التّيمورية، فلم تكن نكبتها بابنتها توحيدة من هذا القبيل، بل كان مصابها بتوحيدة فوق الاحتمال، فبكتها سبع سنواتٍ دأبًا، وكانت تنفِّثُ في سالف عهدها عن نفسها بالمطالعة في الكتب، ولكن ما العمل وقد ذهب البكاء بنظرها وأصابها الرمد وفقدت النافذتين على الحياة، وبهذا فقدت عائشة التيمورية بيئتها الصميمة التي كانت تتمثل في الكتب التي تقرأ والأوراق التي تكتب ففيها كانت تجد التعزية، وحين أصابها الرمد شكت ذلك في شعرها وتوجعت:

**إذا شكتِ الورى سقم العيونِ**
**فإني أشتكي ألم العيونِ**
**أبيتُ كوالهٍ أضناه وجدٌ**
**أنادي من جفوني! من جفوني**
**فلا جفنٌ يطاوعني فأبكي**
**ولا صبرٌ أزيل به شجوني**

ولما طال رمدها طلبت كتبها وأوراقها كما يُطلب الحبيب الغالي:

**أمسُّ الكتب من شغفي عليها**
**وأبلى حسرة من سوء حالي**
**وأندب مهجتي حبًا لأني**
**حرمتُ بدائع السحر الحلالِ**

ثم تهبُ الأوراقَ والمحابرَ والأقلامَ روحًا يُحسُ ويتشوق ويبكي وينعى:

**نَعاني أبيضُ القرطاسِ لما**
**جفاني اليوم نورُ الأسودينِ**
**وقد جفَّتْ دواتي وهي تبكي**
**لِمَا قد راعها من طول أيني**
**وأقلامي قد انشقَّتْ لأني**
**حُرمتُ مساسها بالأصبعينِ**

هكذا كان لعائشة التيمورية من أرواح المؤلفين والشعراء ومن نفثاتهم أسرة تناجيها، وتصغي لها حينًا بعد حين.

وفي تلك الغربة التي تأوي إليها كتبت أشعارها العربية المجموعة في ديون (حلية الطراز) وديوانها التركي والفارسي (كشوفة) و(نتائج الأحوال) ورسالة صغيرة اسمها (مرآة التأمل في الأمور) وتوفيت رحمها الله في 2 أيار/مايو/ 1902م.

عائشة (بنت الشاطئ) (1913م ـ 1998م)

# عائشة عبد الرحمن
# (بنت الشاطئ)
# التلميذة الخالدة(*)

يُعتبر كفاحُ مكتشفة الراديوم البولونية ماريا سكلودوفسكي المعروفة بـ(مدام كوري) المولودة في عام 1867م مثالًا نادرًا للكفاح في سبيل العلم، حيث ضحَّتْ باستقرارها وبصحتها في سبيل دراستها وبحثها، فانتقلت من وارسو إلى باريس لتتعلم في جامعة السّوربون، وهناك قضت سنواتٍ في معملها في ظروف قاسية، حتى اكتشفت مادة الراديوم المشع، وهي رحلة اكتنفتها كثير من المصاعب والعوارض، بقيت تمثل بالنسبة إليَّ صورة نادرة للكفاح في سبيل العلم، حتى قرأتُ سيرة عائشة بنت الشاطئ التي لم يودِّعها أبوها عندما ذهبت للدراسة كما فعل والد مدام كوري، بل

(*) **مجلة المعرفة**، العدد (132)، ربيع الأول 1427هـ ـ نيسان/أبريل 2006م.

كان عقبة كأداء في طريق تعليمها، إذ كان كغيره من بني جيله يعتبر المدرسة فاسدة، ومفسدة في آن.

فقد عاشت الفتاة في ملعب طفولتها على شط النيل بمدينة دمياط، وكان أبوها معلمًا بمدرسة دمياط الابتدائية، فتلقت مبادئ القراءة والكتابة على يده، قبل أن تبلغ الخامسة، غير أن دراستها الجادة والمنتظمة بدأت في صيف 1918م وهي في الخامسة من عمرها.

في ذلك الصيف أودعها أبوها كُتَّاب القرية، لتحفظ القرآن الكريم، فتنتظم في الكُتَّاب ستة أيام في الأسبوع، من مطلع الشمس إلى غروبها.

ومنذ ذلك الصيف ألزمها أبوها تعلُّمَ المبادئ الأولية للعلوم العربية والإسلامية، وأخذ يصطحبها معه إلى المكتب لتعكفَ على حفظ دروسها في الأوقات التي يكون مشغولًا بالتدريس لطلابه.

وبقدر زهوها بأن تتعلَّم ما لا يُتاحُ لغيرها من صواحبها ثقُلت عليها القيود التي فرضها عليها أبوها، إذ تقضي ساعات الصباح في تلقي الدروس وحفظها، ثم تلزم في ساعات الأصيل حضور مجلس والدها وشيوخ المعهد الديني، ولكنها ما لبثت أن أَلِفَتْ تلك القيود، وارتاحت باليأس من الخلاص منها، فأقبلتْ

بكل طاقتها على العلم، واستثار زهوها ثناء الشيوخ عليها، وإصغاؤهم إلى تلاوتها المجودة للقرآن الكريم، وإنشادِها لما حفظتْ من قصائد.

وفي عام 1920م بدأت رحلة العناء في سبيل العلم، حيث كان الأب أكبر عقبة في طريق ابنته عندما صارحته بشوقها إلى الذهاب للمدرسة مع بنات الجيرة اللاتي حدثنها عن المدرسة كثيرًا. وجاءها الردُّ حازمًا وحاسمًا: «ليس لبنات المشايخ والعلماء أن يخرجن إلى المدارس الفاسدة المفسدة، وإنما يتعلمن في بيوتهن».

ومضت بعد ذلك أشهرٌ، وهي تُتْبع بناتِ الحي بصرَها وقلبَها في رحلتهن اليومية إلى المدرسة، ثم تخلو في الليالي مسهدةً، ضجيعة الهم والحسرة، وزهدت في الدنيا بقدر ما يحتمل عمرها الغض، وبان عليها من الذبول والشّرود والانطواء ما جعل أمها تفزع إلى جدها الشيخ محمد الدمنهوجي، وتدخَّل الجدُّ لحسم الموقف فما زال بوالدها حتى انتزع موافقته المكرهة على التحاقها بمدرسة البنات مشترطًا أن تتابع دراستها الدينية في البيت، وأن تنقطع نهائيًا عن الخروج إلى المدرسة، بمجرد أن تشارف البلوغ.

وقد كان يوم دخولها المدرسة أول أيام الامتحان

فقد مضى العام الدراسي الأول، فأدَّت الامتحان مع طالبات الصف الأول في أقل من ثلث الوقت وعجبتْ منها المعلمة وأُعجبتْ بإجابتها، تقول بنت الشاطئ معلقة على ذلك الموقف: «وكتمتُ ضحكة كادت تفلتُ مني فما كانت الأسئلة بالنسبة إليَّ، سوى لعب عيال». وذلك لما أحرزته من دروس في الكُتَّاب، وعلى يد والدها وزملائه شيوخ المعهد.

وأغراها التفوق بالإقبال على دروسها الخاصة في البيت التماسًا لرضا والدها، ولم يكن يخطر ببالها أن تتجاوز المرحلة الابتدائية التي تدرسها، وما كانت تعرف ما وراءها، ثم لم تكد تجتازها حتى كرهتْ أن تواصل زميلاتُها تعليمهن في المدرسة «الراقية» وتتخلف عنهن واقفة رغم تفوقها عند ذلك الشوط القصير، وكانت المدرسة الراقية ـ كما تُسمّى ـ في طابق المبنى ذاته، وكانت تختار تلميذاتها من المتفوّقات في المرحلة الابتدائية، وكانت بنت الشاطئ أولى الناجحات.

وما يزال أبوها يقف في طريق مواصلة تعليمها، فلجأت مرةً أخرى إلى جدِّ أمها، لتستعين به على إقناع والدها ليسمح لها بمواصلة التعليم في المدرسة الراقية، فلما أعياه أن يقنعه استعان بشيوخ المعهد على

والدها، وطالت المجادلة بينهما حتى صارت إلى خصومة حادة، دون أن يتزحزح والدها عن موقفه.

ولما حان موعد افتتاح الدراسة بالمدرسة الراقية أصرَّ جدُّها على ذهابها إلى المدرسة، وسكتَ أبوها على مضض حين أرسلها جدُّها إلى المدرسة الراقية؛ إشفاقًا منه على جدها المقعد، الذي تعلقت آماله بدراسة الفتاه.

تركها أبوها لجدّها تقضي وقتها بين خدمته ودراستها، وكانت في طريق عودتها من المدرسة تشتري له جريدتي الأهرام والمقطَّم، ثم تقرأهما له، وهنا بدأ اتصالها بالصحافة.

هكذا قضت الثلاث السنوات في المدرسة الراقية، وعندما أتمَّتْ المرحلة التعليمية بالمدرسة الراقية بنجاح؛ بدا الطريق أمامها مسدودًا، فقد بلغت الثالثة عشرة؛ سن الحجاب التي تفرض حجزها في البيت مع الحريم، ومن ناحية أخرى لم يبق في دمياط أيُّ مجال آخر لتعليم البنات، فكان على الراغبات في مواصلة تعليمهن أن يتقدمن لامتحان القبول في مدرسة المعلمات بالمنصورة.

وتطلعت الفتاةُ متحدية كلَّ دواعي اليأس والقنوط

إلى مدرسة المعلمات بالمنصورة، وأراد الله لها أن يتحدَّد موعد امتحان القبول بها أثناء غياب والدها عن دمياط، ورقَّ لها قلبُ أمها حين رأتْ إصرارها على أداء الامتحان، فقبلت مرافقتها وليكن بعد ذلك ما يكون، فصحبتها إلى المنصورة، فأدت امتحان السنة الثانية بمعهد المعلمات إذ كان ذلك متاحًا، لخريجات المدرسة الراقية.

وعادت إلى بيتها وجلة من رد فعل أبيها، ولكن الأزمة مرّت بسلام كما بدا لها، ويا للمفاجأة عندما علمتْ أن والدها قد سحبَ كلَّ أوراقها من المعهد بصفته وليّ أمرها، فأمسكت عن الطعام حتى خيف عليها من الموت، وتكاثر الأهل وزملاء والدها عليه، فلم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطابًا إلى المدرسة.

وما كانوا ليشكُّوا في صدقِ كلمته، ولكنه عندما حان موعد الامتحان اتضح أنه تحلل من هذا الوعد بأن غلَّف ورقةً بيضاء، وكتب على الظرف عنوان المدرسة، ووضعها في صندوق البريد.

وبعد شهرين من بدء الدراسة استعانت والدتها بشيخ الأب وإمامه، فأذن لها بالدراسة، فما كان يملك أن يرفض له طلبًا.

بصحبة والدتها سافرت إلى المنصورة لتفاجأ بأن المدرسة قد استنفدت كل العدد المقرر قبوله من الطالبات، وأشارت عليها مديرة المعهد بالالتحاق بمدرسة جديدة للمعلمات في حلوان، فباعت أمها سوارًا ذهبيًّا كانت تتزين به وقطعت من ثمنه تذكرتين في أول قطار إلى القاهرة، وقصدت الأم خالها الذي كان يسكن في السّيدة زينب، فصحبها إلى حلوان، وهناك اضطرت أن تدرس السنة الأولى برغم أنها اجتازت ـ في المنصورة ـ امتحان السنة الثانية، ثم ما لبثت أن جاء قرار وزارة المعارف برفض قبولها في السنة الأولى لاجتيازها امتحانًا يؤهلها للدراسة بالسنة الثانية.

وبعد مراجعات جاء رد مدرسة طنطا بقبولها للدراسة في السنة الثانية، ولكن بعد إجراء فحص طبي للنظر، في قصة معاناة أخرى.

وقُبِلَتْ في مدرسة طنطا وحسبتْ أنها نهاية المطاف، فأقبلت على دروسها جادةً في تحصيل ما فاتها منها، وقد أوشك امتحان نصف السنة أن يُعقد، فأدته بنجاح، ثم تابعت الدراسة بقية الموسم.

وبعد أن اجتازت امتحان النقل إلى السنة الثالثة،

عادت إلى بيت والدها، لتواجه ما طوته عنها أمها في رسائلها، فقد مات جدها الشيخ ومن ثمَّ ذهب الركن الذي كانت تلجأ إليه أمام إصرار أبيها على حجزها في البيت، فعاد إلى حجزها وردها إلى الطريق المستقيم الذي انحرفت عنه.

وعجزت أمها عن مواجهة أبيها، فأصيبت الفتاة بانهيار عصبي، أعيا الرقاة والأطباء دواؤه، فانقطعت عن المدرسة، وتقرر شطب اسمها من سجل طالباتها، لعجزها عن الانتظام في الدراسة.

وكاد يغلبها اليأس ولكنها بعد طول تفكير، وجدت المنفذ الوحيد أمامها أن تستعير الكتب المدرسية المقرّرة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات وتعكف على تحصيلها ثم تسللت من البيت خفيةً وأبوها غائبٌ، فأدتْ شهادة الكفاءة للمعلمات، أمام لجنة مدرسة طنطا.

وفي قاعة الامتحان الشّفوي كان عليها أن تنتظر فراغ الطالبات المنتظمات، وقد كانت الوحيدة التي تؤدي الاختبار غير منتظمة في الدراسة.

فلما جاء دورها تلت مجوِّدةً ما اختاروا لها من سور القرآن الكريم، ثم سألها الممتحنون عما تحفظ

من النصوص الشّعرية، فسألتهم: من أي عصر؟ فعجبوا لذلك وقال أحدهم، من شعر كل عصر وهم في دهشة من حفظها، حتى إذا وصلوا إلى العصر الحديث، فاجأتهم بقولها: من شعري أو من شعر سواي؟ فقال أحدهم، إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك، فأنشدتهم قصيدة لها في الحنين إلى دمياط مطلعها:

**دمياطُ حبُّكِ حركتْ أشجانَه**
**آلامُ قلبٍ في الغرام مصفدِّ**

فسألوها عن وجهتها، فلما أبلغتهم أنها تريد أن تحصل على شهادة القسم الإضافي لتعمل معلمة بعد ذلك في المرحلة الابتدائية، حاولوا صرفها عن هذا الاتجاه، وزيَّنوا لها طريق الجامعة، ففيها المجال الرحب الذي يستحق أن تتعلق به وتسعى إليه، وتعلِّق بنت الشاطئ على موقف الممتحنين فتقول: «في ظني أني لم أكن حتى ذلك اليوم، قد سمعتُ عن الجامعة، إلا كلمات مبهمة، وقد فهمت من كلام الأساتذة الممتحنين، أن الطريق إلى الجامعة يحتاج إلى زاد من اللغتين، الانجليزية والفرنسية، فعجبت بدوري لشططهم في تقدير طاقتي وعدتي، وإني من بيئة لم تدنسها كلمة من لغة الفرنجة».

وخرجتْ من الامتحان سنة 1929م وهي الناجحة الأولى على مستوى القطر المصري بفارق مئة وثلاثين درجة في المجموع عن الطالبة التي تليها في ترتيب النجاح.

ثم آثرتْ بنتُ الشاطئ بعد ذلك أن تلتحق بالعمل في مدرسة البنات الملحق بمعلمات المنصورة، لتقيم في القسم الداخلي بها، بمنأى عن جو بيتها المشحون بالضباب والدخان، إذ وافق أبوها أن تعمل بالتدريس تحت ضغط زملائه الذين أقنعوه بأنها ستمل العمل من نفسها عما قريب.

ومضى على عملها بالمنصورة عام وبعض عام، ملأت كل دقيقة فيها بالتدريس، نهارًا والتحصيل ليلًا، وكانت كلما أجهدها العمل المزدوج روّحت عن نفسها بمطالعة كتب من صنفٍ جديد.

ومع هذا الجهد المضني لم يُسمح لها بتقديم امتحان القسم الإضافي، لأن اللوائح لا تجيز تقديمه إلا للمنتظمات.

وبعد جهدٍ أُقترح عليها أن تَعْدِلَ عن التمسك بتقديم امتحان القسم الإضافي وتقدِّم بدلًا منه لنيل الشهادة الابتدائية، التي يبدأ امتحانها في ذلك اليوم،

ففعلت مع أنها لا تتقن من الانجليزية كلمة واحدة، وهي من متطلبات تلك الشهادة، فأَجَّلَتْ امتحان اللغة الإنجليزية بإجازة مرضية، إلى الدور الثاني لكي تستعدَّ له، ونُقل مقر عملها من المنصورة إلى إحدى مدارس السيدة زينب لتقيم عند أحد أصدقاء أسرتها، وتتعلم الإنجليزية.

وجاء امتحان الدور الثاني ولم تكن تمكنت من قواعد الإنجليزية، فجعلت أملها في موضوع الإنشاء، واعتمادًا على قراءة الكتاب المقرر وهو إذ ذاك كتاب (السندباد البحري) جاء سؤال الإنشاء يطلب إليها كتابة عشر جمل في (كيف نجا السندباد من وادي الأفاعي؟) فألفَتْهُ سهلًا لكنها لم تمض في كتابة جملة أو جملتين حتى وقفت تحاول تذكر معنى كلمة (نسر) بالإنجليزية، والنسر هو بطل ذلك الفصل كله من قصة السّندباد، فمن المستحيل الاستغناء عن ذكره في ست أو سبع جمل من العشر المطلوبة، وهمَّت بمغادرة القاعة، وقد رسخ في بالها أن الله تعالى لا يريد لها أن تمضي في ذلك الطريق.

وفيما هي تلقي بقلمها الرصاص في يأس وقنوط، وقع بصرها فجأة على صورة نسر مبسوط الجناحين مرسومة على قلم الرصاص، فما تمالكت أن

صاحت: وجدتها، فقد وجدت كلمة نسر محفورة بالإنجليزية تحت صورته على قلمها، وكتبت الجمل العشر وفي يقينها أن الله معها واجتازت الامتحان.

وبعد عام واحد تقدَّمت - من المنزل - إلى امتحان الشهادة الثانوية، قسم أول، وقد استوعبت في ذلك العام كلَّ المواد المقرّرة على سنواتها الثلاث، مع اشتغالها بتدريس أربع وثلاثين حصة في الأسبوع، إلى جانب الأعمال الإضافية التي تثقل كاهل معلمة المدرسة الأولية.

وفي هذه المرحلة وجهت اهتمامها إلى تعلم اللغة الفرنسية مع اللغة الانجليزية، ومر عليها امتحان اللغتين بسلام.

وتروي قصة استعدادها لامتحان الشهادة الثانوية فتقول: «في استعدادي لامتحان الشهادة الثانوية، قسم أول، عام 1932م أفرغت جهدي في تحصيل المقرر علينا من دروس الإنجليزية والفرنسية، وكتب الطبيعة والكيمياء.

وسرقني الوقتُ فغفلتُ عن إحضار كتاب (تاريخ أوروبا الحديث) المقرر على السنة الثالثة الثانوية، ولم أنتبه إلى ذلك حتى افتقدته قبيل الامتحان.

ولم يكفِ الوقتُ لاستيعاب كل ما في الكتاب، فساورني ليلة الامتحان شعور بالقلق، لم أملك حيلةً إلا أن أفوض أمري فيه إلى الله.

وأخذتني سِنَةٌ من نوم، فرأيتُ فيما يرى الحالم أنني في قاعة الامتحان أقرأ من ورقة التاريخ، أول سؤال فيها عن (مارتن لوثر وحركة الإصلاح الديني).

وصحوت من غفوتي، فلم أتردّد في مراجعة هذا الفصل الذي كان قد فاتني من الكتاب، واثقة كلَّ الثقة أن الامتحان فيه.

وحين وزِّعَتْ علينا أسئلة التاريخ في الصباح التالي، لم أعجب لصدق الرؤيا، وازددتُ يقينًا بأن الله معي. على الطريق».

وانتقلتْ بنت الشاطئ في هذه الأثناء من العمل بالتدريس إلى العمل كاتبة بكلية البنات فأُتيح لها تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ودخول المعمل للتدريب على عمل بعض تجارب مادة الطبيعة.

ولكي يكون لها دخل تعيش منه، كانت تعمل بالتصحيح اللغوي في مجلة «النهضة النسائية» وفيها تنشر بعض مقالاتها، وتحصل على دخل إضافي يعينها على مواصلة السّير في درب التعليم، وحول عملها

المضني في مجلة النهضة النسائية تقول: «نظير أربع جنيهات في الشهر، كانت في تقديري مكافأة سخية على كتابة بريد المجلة، وإعداد موادها للطبع، وتصدير كل عدد فيها بمقال افتتاحي، أتفنن في إنشائه وأوثقه باسم السيدة الكبيرة صاحبة المجلة» السيدة الحاجة لبيبة أحمد «ثم أحمل أعداد كل شهر إلى مطبعة حجازي بالجمالية، لأعود مرّة فأصحّحها وأخرى لأتسلم أعدادها ـ نحو ألفين ـ مطبوعة، وأنقلها في عربة خيل إلى مقر المجلة في حي عابدين، وأكتب عناوين المشتركين على غلافها، ثم أحملها على دفعات إلى صندوق بريد المطبوعات على ناصية شارعي خيرات والمبتديان وأتابع حركة البريد وتسديد الاشتراكات».

وقد كانت تكتب مقالاتها في جريدة الأهرام باسم (بنت الشاطئ) الذي كان يمثل حياتها الأولى على شواطئ دمياط، خوفًا من إثارة حفيظة والدها، لو نشرتْ المقالات موقّعة باسمها، ثم غلب عليها هذا الاسم حتى عُرفت به.

وفيما كانت تمارس هواية الكتابة، وتحمل عبء عملها في كلية البنات وعبء تحرير (مجلة النهضة النسائية) وإدارتها، تابعتْ تحصيل المواد المقررة، على

طلاب البكالوريا (الثالث الثانوي) وتقدمتْ لامتحانها من المنزل.

تقول بنت الشاطئ: «وهكذا مشيتُ على الطريقِ الوعر، فكلَّما قطعتُ شوطًا منه تقدمتُ إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستي كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لي.

وخفيةً كذلك عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية، واللوائح المدرسية، التي أقامت الحواجز والسدود، في طريق مثلي إلى الجامعة!

حتى وصلتُ بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب، من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة، إلى باب الجامعة أحمل شهادة (البكالوريا أدبي) التي ظفرتُ بها صيف عام 1934م مع قلة من الناجحين من منازلهم»

وبعد رحلة العذاب والمكابدة ـ كما وصفتها بنت الشاطئ ـ التحقتْ بجامعة القاهرة لتتخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية عام 1939، ثم تنال الماجستير بمرتبة الشرف الأولى عام 1941م. وقد تزوجت أستاذها بالجامعة الأستاذ «أمين الخولي» أحد قمم الفكر والثقافة في مصر حينئذ، وواصلتْ

مسيرتها العلمية لتنال درجة الدكتوراه عام 1950م ويناقشها طه حسين.

لقد كانت بنت الشاطئ نموذجًا نادرًا وفريدًا في الركض الطويل في ميدان المعرفة، والسعي الحثيث نحو تكوين الذات العلمية المتميزة، برغم كل العوائق، وهي إلى ذلك نموذج فريد للمرأة المسلمة التي حررت نفسها بنفسها بالإسلام، فمن طفلة صغيرة تلهو على شاطئ النيل في دمياط شمال دلتا مصر، إلى أستاذ للتفسير والدراسات العليا في كلية الشّريعة بجامعة القرويين في المغرب، وأستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة عين شمس بمصر، وأستاذ زائر لجامعات أم درمان 1967 والخرطوم، والجزائر 1968، وبيروت 1972، وجامعة الإمارات 1981 وكلية التربية للبنات في الرياض 1975 ـ 1983. وتدرّجت في المناصب الأكاديمية إلى أن أصبحت أستاذًا للتفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب، حيث قامت بالتدريس هناك ما يقارب العشرين عامًا.

وتركت بنت الشاطئ وراءها ما يربو على الأربعين كتابًا في الدراسات الفقهية والإسلامية والتاريخية واللغوية، منها: التفسير البياني للقرآن

الكريم، والقرآن وقضايا الإنسان، وتراجم سيدات بيت النبوة، نص رسالة الغفران للمعري، والخنساء الشاعرة العربية الأولى، ومقدمة في المنهج، وقيم جديدة للأدب العربي، على الجسر. . سيرة ذاتية، سجلت فيه طرفًا من سيرتها الذاتية، وكتبته بعد وفاة زوجها أمين الخولي بأسلوبها الأدبي. وكتاب «بطلة كربلاء»، وهو عن السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، ومن مؤلفاتها أيضًا: سكينة بنت الحسين، مع المصطفى، مقال في الإنسان، نساء النبي، أم الرسول محمد. .آمنة بنت وهب، أعداء البشر، أرض المعجزات. . رحلة في جزيرة العرب.

كما شاركت في العديد من المؤتمرات الدولية في كل هذه المجالات، وقد جاوزت شهرتها أقطار الوطن العربي والإسلامي، وكانت كتاباتها موضوعًا لدراسات غربية ورسائل جامعية في الغرب، وفي أوزبكستان واليابان.

وقد حظيت د. عائشة عبد الرحمن بمكانة رفيعة في أنحاء العالم العربي والإسلامي، وكرّمتها الدول والمؤسسات الإسلامية؛ فكرّمتها مصر في عهد السادات وعهد مبارك، ونالت جائزة الملك فيصل،

واستحقت عضوية مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، وكرّمها ملك المغرب، وقد أعلنت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية عند وفاتها في مطلع كانون الأول/ديسمبر 1998 إقامة سرادق لتقبل العزاء فيها، في لفتة نادرة تعكس مكانة بنت الشاطئ من الخليج إلى المحيط، وودّعتها مصر في جنازة مهيبة حضرها العلماء والأدباء والمثقّفون الذين جاءوا من شتى الدول، ونعاها شيخ الأزهر.

وبهذا الكفاح الطويل في سبيل المعرفة على مدى ثمانين عامًا استحقت عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) الخلود في الذاكرة العلمية عبر الأجيال.